جديدان في "ثلاثون حكاية" لجاد الحاج: الفانتازيا الهادفة وإنصهار المحكي في المكتوب

بون- فارس يواكيم

لو كان عدد القصص القصيرة التي تتابعت في كتاب جاد الحاج الأخير "ثلاثون حكاية" ستين أو تسعين حكاية، ما كانت ستتغير تركيبة الموزاييك التي رصعها المؤلف بكلف حريص ، فهي حكايات ـ لوحات عن لبنان ومنه بصرف النظر عن مكان حدوثها ، في لندن، باريس ، كاليفورنيا ، سيدني ، أو في المستقبل البعيد، لأن تغير المكان لا يعني أن الراوي خرج بنا من موطنه، بل حمله معه ـ عبر الشخصيات والهموم والافكار ـ إلى أماكن أخرى. حتى في مكان متخيّل تماماً كما في حكاية "عذراء الصخور" والعاصمة توريب (اقرأ من اليسار إلى اليمين تجدها بيروت) يبقى الموضوع عن مجتمع لبناني متهالك يتشبث أهله بالأساطير في انتظار معجزة من الغيب تعيد اليهم دفء الشمس ونار الحياة.

وكما أن تعدد الأمكنة يظل دوراناً في فلك لبنان، كذلك الأمر بالنسبة الى الزمان،الحقبة الأساسية التي ولدت منها تلك الحكايات هى مرحلة حرب مدمرة عصفت بلبنان (1975 - 1990). أما الحكايات التي خرجت عن ذلك الإطار الزمني فتجدها تستدعيه بالمقارنة معه، كمثل حكاية "ترامواي"، وفيها رجوع إلى ما قبل الحرب "عندما كانت بيروت مدينة مثل العالم والناس" وكان الراوي يركب الترام مع جده "ونذهب إلى مسبح عجرم(...)حيث الدخول بربع ليرة للأولاد ونصف ليرة للبالغين ."

انبثقت شخصيات الحكايات الثلاثين من ذلك المكان والزمان الرئيسيين، فهي نتاج الحرب وهي معبرة عنها من خلال احداث وشخصيات تتفاوت في المسار، لكنها تتفق في المصير: كلها حطمتها الحرب بشكل أو بآخر. يتعاطف القارىء أويشفق أويشمت لكنه في النتيجة يرى جميع الشخصيات بعيني المؤلف الثاقبتين، عين كعدسة كاميرا تلتقط أدق التفاصيل وعين كريشة رسام تعيد إبداع اللقطات وفق مستلزمات السرد القصصي. بطل حكاية "غرفة السطح" مثلاً يطل علينا بالوصف التالي لزائر غريب زج نفسه عنوة في سهرته: "إنه ريّس أوباش الحي الملقب بـ الفركوح بسبب مشيته المواربة كأنه يرفس حصاة بساقه اليمنى نحو اليسرى وبالعكس. رشيشه في كتفه، على وجهه ابتسامة التحشيش البلهاء وفي يده زجاجة ويسكي فاخرة، الله أعلم من أي متجر صادرها".

الذين عاشوا الحرب يتعرفون على شخصيات جاد الحاج لأنهم عرفوا امثالها، والذين يعرفون المؤلف يتأكدون من صحة القول الفرنسي "الأسلوب هو الإنسان". لغته في هذه المجموعة مزيج من أناقة وسخرية وشاعرية، وخليط موفق بين الفصحى والعامية : "مررت به ومرحبته"(...) "أنت تريد امرأة في المطلق. امرأة تعجنها وتخبزها وتأكلها على ذوقك"(...) "كلما وقعت سرقة أو اختفى غسيل منشور أو بصّت عينان من خلف أجمة، قيل إنه الشَّلَف (المتحاذق الشارعي بامتياز). الخادمات يزعقن كالدجاج المذعور

حين يمرّ بين البيوت، وتحبس الستات أنفاسهن كلما سمعن تعزيلة حنجرته. ويشاع أنه لا يعفّ عن الأولاد إذا تمكن من أحدهم"(...) "في الثلاجة أربع زجاجات بيرة وزجاجة ويسكي مغشوش ورغيف خبز تلوّى كمخطوف على الهوية قبل أن يكشّر عن ابتسامته الأخيرة"(...) "تصعد الشتيمة إلى خشمي كلما ركبت في السرفيس. كل واحد، بشرفي، جمهورية. كلهم يعرفون البيضة من باضها وعندهم حلول جذرية ليس فقط للوضع الراهن ومسألة الشرق الأوسط، بل لقضايا العالم بأسره من بحر الصين إلى الاسكيمو. وفي آخر النهار يقعدون بلا كهرباء ولا ماء ولا طرق ولا دولة، ويلعبون بالورق في الملاجيء المكتظة".

مشكلة القفلة لا شك أنها واجهت الراوي في بعض الحكايات فعالجها بجعل النهاية حلماً، أو وافانا بنبأ موت الشخصية الرئيسية بهدوء بارد. لكنه في معظم الحكايات تدرّج بالحدث الى القفلة المنطقية، وأحياناً إلى خاتمة مفاجئة ومؤثرة مثلما في حكاية "جسر الماء" وفيها اثنان: تاجر الكماليات وإبن خاله مقاول البناء، تعطلت أشغالهما في السنة الثالثة للحرب فجرّ واحدهما الآخر إلى مغامرة بقيت غامضة حتى السطور الأخيرة.

الجديد في هذه المجموعة جديدان: نجاح ثابت في تجربة اللغة حيث ينصهر المحكي بالمكتوب انصهاراً كاملاً، فلا نفور ولا هجنة بينهما، بل هي لغة الحياة مرفوعة الى مستوى الفن الحكائي، والجديد الآخر حضور مستجد للفانتازيا الهادفة، حيث يحوّل الخيال المستحيل الى واقع معيش، بل تصبح الخرافة اسطورة شعبية.

<u>النهار</u>